محاضـــرة

عبد الحميد ابن باديس

شنت فرنسا حربا لا هوادة فيها على الثقافة العربية و الإسلامية في طول البلاد وعرضها ،فعمدت على تهديم صروح الثقافة المزدهرة في الجزائر منذ القرنين 14 و15 م المتمثلة في مدينتي تلمسان وقسنطينة ،وفي الوقت نفسه أغلقت أبواب نحو ألف مدرسة إبتدائية وثانوية وعالية في وجه أكثر مما يزيد عن مئة و خمسون ألف طالب ،وشردوا معظم الأساتذة المتضلعين بمختلف التخصصات العلمية مما حرم الطالعة من التعليم ،ولم يبقى من المدارس إلا ما تسمح به السلطات الفرنسية وإذا سمحت تسمح إلا بفتح مدرسة قرآنية بشروط مهينة[1] ،وأمام التدهور العقائدي الذي اسدل ظلامه على عقول الناس و قلوبهم وانتشار الطرقية المقيتة الحاملة للشرك والقبورية ،في ظل هذا الوضع القاتم المتأزم ظهر رائد من رواد النهضة التنورية الحاملة للفكر الوسطي والعقل المتوازن والعقيدة الصحيحة المبنية على القران و السنة ،كله عزيمة وإصرار على تخليص العقول من الجهل والعقيدة من الشرك والبلاد من الاستعمار والسعي لتوحيد الامة العربية على كلمة التوحيد .

هو عبد الحميد ابن باديس الجزائري المولود في شهر ديسمبر 1889 وسط أسرةٍ من أكبر الأسَر في مدينة قسنطينة ويعود نسبه إلى المُعزّ بن باديس بن منصور بن بُلُكّني بن زيري بن منَاد، وهذا الأخير يكنّى بأبي الفتوح، ويلقّب بسيف الدولة، وقبيلته هي صِنهاجة

[1] موفق بني المرجة ،صحوة الرجل المريض أو السلطان عبد الحميد الثاني والخلافة الإسلامية ،ط2 ،دار البيارق ،بيروت ،1996،ص 449و462

من بطون البُرانس، وهي من أوفر قبائل البربر كما يقول ابن خلدون [1]،أشهر جدود ابن باديس وكان يفتخر به كثيرا هو المعز بن باديس ت 454 هـ الذي حارب الإسماعيلية الباطنية ، وبدع الشيعة في إفريقية[2] ، قال عنه الذهبي في السير: "وكان ملكاً مهيبا، ًسريّاً شجاعا، ً عالي الهمّة، محبّاً للعلم، كثير البذل، مدحته الشعراء. وكان مذهب الإمام أبي حنيفة قد كثُر بإفريقية، فحمل أهل بلاده على مذهب مالك حسماً لمادة الخلاف[3] ، ورغم كونه من أصولٍ أمازيغية مجيدة، إلا أن ابن باديس كان يفاخر بعروبته وإسلامه تلقى عبد الحميد ابن باديس تعليمه الأولي فلم يرد والده ادخاله المدارس الفرنسية ، وإنما حرص على تنشئته على تربية إسلامية خالصة نشأته على حب القرآن و التحلي بالأخلاق الحميدة ، حفظ القران كان عمره لا يتجاوز ثلاثة عشر ،تقدم لإمامة الناس في صلاة التراويح في الجامع الكبير ،ثم اختار له والده احد الشيوخ الصالحين و المتمكنين في المعارف الإسلامية وهو أحمد أبو حمدان الونيسي الذي كان منتمياً إلى الطريقة التيجانية سالكاً منهجها، فأخذ يعلّمه بجامع سيدي محمد النجّار مبادئ العربية والعلوم الإسلامية ويوجهه وجهة علمية أخلاقية. وبعد فترة من الزمن هاجر شيخ الونيسي إلى المدينة النورة وبقي فيها إلى أن توفي[4] ، ثم سافر سنة 1908 إلى تونس لإكمال دراسته العليا في جامع الزيتونة، حيث درس الأدب العربي على يد الشيخ محمد الطاهر بن عاشور، وتفسير القرآن على يد العالم محمد النخلي ،والتاريخ العربي الإسلامي على يد الأستاذ البشير الصفر، وكان هؤلاء العلماء الثلاثة من خيرة أساتذة الزيتونة ورواد النهضة في تونس ،وبعد أربع سنوات في جامع الزيتونة نال شهادة العالمية ،وأثناء إقامته في تونس تواصل مع الكثير من الشخصيات

[1] ابن خلدون، عبد الرحمن، كتاب العرب وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر،)بيروت، دار الكتب العلمية، ط،1 1992م ،مج،6 ص 1.

[2] طالبي عمار ، ابن باديس حياته وآثاره،(بيروت، دار الغرب الإسلامي، ط،1 1968م) ج،1 ص

[3] الذهبيّ، شمس الدين، سير أعلام النبلاء،)بيروت، مؤسسة الرسالة، ط،11، 1422هـ- 2001م، ج،18 ص140

[4] عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج،1 ،مرجع سابق ،ص 74

الدينية والسياسية والأدبية لمناقشة الظروف التي يمر بها المغرب العربي في ظل الإستعمار الفرنسي المتسلط، الذي كان يهدف إلى طمس معالم الهوية العربية ، فأسهمت هذه الحوارات وقراءاته المعمقة في أثراء وإغناء ثقافته ورؤاه الفكرية والسياسية ، وفي سنة 1912 عاد الى الجزائر وهو يتطلع الى الإصلاح والتجديد لمواجهة التحديات التي تتعرض لها الجزائر .

واثناء أدائه مناسك الحج بمكة المكرمة والمدينة المنورة، تعرف عن كثب على حركة الوهابيين الإصلاحية وهي في أوج انتشارها بالبقاع المقدسة. واجتمع مجددا، خلال إقامته بالمدينة المنورة، بحمدان لونيسي، أول أساتذته، الذي انتقل للإقامة بمدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، حيث باشر تعميق معارفه على يديه وعلى يد أساتذة آخرين.

ومن سنة 1913 وهو تاريخ عودته الى ارض الوطن اشتغل بالتعليم و التنشيط الثقافي وهذا حتى سنة 1925 ،بعدها اعطى كل مجهوده لإصلاح الممارسات الدينية السائدة في البلاد. وخلافا للرأي الذي أشاع له مؤرخون وناشرون، فإن الحركة الإصلاحية الدينية في الجزائر لم تولد من العدم على أيدي ابن باديس ورفاقه.

اقوال في شخصه

قال عنه أحمد الصالح رمضان أنا أرى فيه صورة الحواريين والصحابة [1].

اما مالك بن نبي فيشبّه كلمات ابن باديس بمعجزة البعث [2].

وقال عنه عمار طالبي أنه شخصية عجيبة [3].

قال الشيخ أنور الجندي "عبد الحميد بن باديس داعية الإسلام و العروبة و الجزائر[1].

[1] مطبقاتي، عبد الحميد ابن باديس الزعيم الرباني والزعيم السياسي، ص 7

2 نالك بن نبي، شروط النهضة، بيروت ، دار الفكر، ط،4 1987، ص 26

3 عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج،1 ، مرجع سابق ،ص 94

مؤلفاته

- آثَارُ ابْنُ بَادِيسَ المحقق عمار طالبي، 4 أجزاء .
- أصول الفقه – آيات وأحاديث الأحكام من أمالي الأستاذ الإمام ،تعليق وتحقيق: محمد الحسن فضلاء.

-الْعَقَائِدُ الْإِسْلَامِيَّةِ مِنَ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةِ وَالْأَحَادِيثِ النَّبَوِيَّةِ

- تفسير ابن باديس في مجالس التذكير من كلام الحكيم الخبير المحقق: علق عليه وخرج آياته وأحاديثه أحمد شمس الدين.
- جريدة «الشريعة» النبوية المحمدية تصدرها «جمعية العلماء المسلمين الجزائريين».
- مبادئ الأصول إملاء: المحقق: الدكتور عمار الطالبي
- الكتاب: مجالس التذكير من حديث البشير النذير .

ذلك أن نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين قد شهدتا بروز مفكرين إصلاحيين تمثلهم مجموعة من العلماء والأساتذة المقتدرين بالجزائر العاصمة وقسنطينة وتلمسان وغيرها، من أمثال الشيخ مجاوي والشيخ بن سماية والشيخ بن علي فخار، الذين أدانوا الممارسات الظلامية لبعض الطرق الدينية وتلك المتصلة بمن كانوا يعتبرون أولياء صالحين، لورعهم أو نسبهم. كما نددوا بسيطرة إدارة الإحتلال على الشؤون الدينية والإسلامية. وقد التقى الشيخ محمد عبده، خلال زيارته سنة 1905 إلى الجزائر العاصمة وقسنطينة، بالعديد من هؤلاء العلماء المعلمين.

وقد تطورت الحركة الإصلاحية في الجزائر ما بين الحربين العالميتين بفضل ما بذله ابن باديس ومجموعة من أتباعه الأوفياء، من قدامى تلاميذه ومن رفاق له تلقوا، في

1 الجندي أنور، تراجم الأعلام المعاصرين في العالم الإسلامي، القاهرة ، مكتبة الأنجلو المصرية ، ط1، 1970،ص 197

معظمهم، تكوينهم بتونس أو في الشرق الأوسط. وقد استرشدت هذه الحركة بفكر ونشاط محمد عبده ورشيد رضا، كما تأثرت كذلك بالحركة الوهابية المتزمتة ،و بالعديد من أفكارها.

وكان هدف ابن باديس، العقل المدبر والقائد المنشط لهذه الكوكبة، الذي اجتمعت فيه صفات النزاهة والأمانة الفكرية اللامتناهية والذي هام حبا بالجزائر ولغتها ودينها، هو تطهير الإسلام الجزائر من كافة الممارسات التي لا تتفق مع القرآن والسنة من حيث هما المصدران الوحيدان للعقيدة الإسلامية. هؤلاء الرجال المتفانين والمتطوعين كانوا يرومون جميعهم، عن طريق التربية والكتاب والصحافة، بعث سنة السلف الصالح في عهود الإسلام الزاهرة الأولى، مع تكييفها مع ما تقتضيه آفاق التفتح على حداثة معتدلة. كان على المسلمين، في نظرهم، أن يجعلوا السلف الصالح مثلهم الأعلى فأطلقوا على أنفسهم، اسم السلفية، مثلما كان الحال في الشرق الأوسط. كما عرفوا باسم الإصلاحية.

سعى عبد الحميد بن باديس، للنشر أفكاره الإصلاحية في جريدة "المنقد" ، لكن لم تدم طويلا وتم منعها من صدور ، ليقوم بإصدار جريدة أخرى اسمها "الشهاب" التي تم إصدارها بين سنتي 1925و1939، قام ابن باديس ومجموعة من رفاقه، سنة 1931، إلى إنشاء جمعية العلماء المسلمين الجزائريين ،حيث انتخب رئيسا لجمعية خلال اجتماع للجمعية العامة التأسيسية، بنادي الترقي، بالجزائر العاصمة، ضم رفاق وتلامذة الشيخ وأتباعه ومندوبين من داخل البلاد. وكان مجلس الإدارة الأول للجمعية يضم: الطيب العقبي، مبارك الميلي، البشير الإبراهيمي والعربي التبسي.

وإذا كان ابن باديس نفسه، الذي يقدم على أنه متصوف، لم يعتمد دائما القسوة تجاه الطرق الدينية بحكم تحليه بفضائل الاستماع والتسامح التي تليق بواحد من أتباع ابن عربي وجلال الدين الرومي، فإن أعضاء آخرين في الجمعية كانوا أكثر صرامة في الأمور العقائدية وهو الأمر الذي أدى الى مواجهات حول علوم الدين والأخلاق والممارسة اليومية للشعائر الدينية. وقد قادوا مرارا حملات ضد الطرقية و ضد الممارسات الدينية الشعبية.

وقد شرع الإمام ابن باديس رحمه الله تعالى في العمل التربوي، وانتهج في دعوته منهجًا يوافق الفكر الإصلاحي في البعد والغاية، وإن كان له طابع خاص في السلوك والعمل يقوم على ثلاثة محاور أساسيه أولها واهمها إصلاح عقيدة الجزائريين ، من خلال تبيان التوحيد الذي يمثّل عمود الدعوة السلفية ، وما يضادّه من الشرك ، ذلك لأنّ التوحيد هو غاية إيجاد الخلق ، وإرسال الرسل، ودعوة المجدّدين في كلّ العصور والأزمان ، لذلك كانت دعوته قائمة على أخذ العقيدة من الوحيين وعلى فهم الأوّلين، والتحذير من الشرك ومظاهره، ومن بدعة التقليد الأعمى، ومن علم الكلام وجنايته على الأمّة، ذلك لأنّ من أهمّ أسباب ضياع التوحيد ابتعاد الناس عن الوحي وفُشُوّ علم الكلام والخوض فيه واتباع طرقهم الضالة عن سواء السبيل، ومرض الجمود الفكري والركون إلى التقليد .

ثم ثانيا أظهر عناية أكيدة بتربية وتعليم الجيل على القرآن وتعليم أصول الدين وعقائده من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية، عن نوعية هذا التعليم فيقول ابن باديس: "ما كنت أدعوهم في جميع مجالسي إلا لتوحيد الله، والتفقه في الدّين، والرّجوع إلى كتاب الله، وسنّة رسوله، ورفع الأميّة، والجدّ في أسباب الحياة من فلاحة، وتجارة، وصناعة، وإلى اعتبار الأخوة الإسلامية فوق كل مذهب، وطريقة، وجنس، وبلد، وإلى حسن المعاملة، والبعد عن الظلم، والخيانة مع المسلم، والغير المسلم، وإلى التزام القوانين الدولية التي لابدّ منها لحفظ النظام. كنت أذكرهم بهذا كله، وأقرأ على وجوههم سمات القبول، والإذعان، وأنا على يقين من بقاء أثر نافع لذلك بصدق قوله تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنفَعُ المؤمنين)[1]) [2]، إذ كان همّه تكوين رجال قرآنيين يوجّهون التاريخ ويُغيّرون الأمّة ،وقد تجلّى ذلك في بعض مقالاته حيث يقول رحمه الله: «فإنّنا والحمد لله نربي تلامذتنا على القرآن من أول يوم، ونوجّه نفوسهم إلى القرآن في كلّ يوم". وقد اعتبر الشيخ عبد الحميد بن باديس أنّ سبيل

[1] سورة الذاريات ،آية 55

2عمار طالبي، ابن باديس حياته وآثاره، ج 4 ، مرجع سابق ،ص 297

النجاة والنهوض يكمن في الرجوع إلى فقه الكتاب والسنّة وعلى فهم السلف الصالح، ذلك لأنّ علماء السلف إن اتفقوا فاتفاقهم حجّة قاطعة، وإن اختلفوا فلا يجوز لأحد أن يخرج عن أقوالهم ، وبعد مسيرة طويلة توصل ابن باديس إلى قناعة ان الحلقات العلمية في المؤسّسات التربوية ودروس المساجد أصبحت غير كافية ولا تحقق غاياتها المبرمجة وتوجب ضرورة توسيع نطاق الدعوة ، إلاّ بتعزيزها بالعمل الصحفي مع توفير شروط نجاحه بتأمين مطبعة خاصة له على وجه الامتلاك، أقبل على تطبيق فكرته في سبيل الإصلاح وتجديد الدين بتأسيس أول صحيفة جزائرية بالعربية وسُميت " المنتقد " وهي بداية للانتقال لمرحلة التطبيق العملي من أجل مقاومة الطرق العقائدية والسلوكية المشينة و الغير شرعية التي كان ينشرها رجال التصوّف وأرباب الطُّرُق من الزوايا وأماكن الأضرحة والقبور، وقد تَغَلْغَلَ كثير من تلك الضلالات والمعتقدات الفاسدة في صفوف الناس وحتى بعض المثقفين منهم والتي كانت تحمل شعار " اعتقد ولا تنتقد "، وقد كان اختياره لعنوان صحيفته يهدف إلى القضاء على هذا الشعار أوّلاً، وإزالة فحواه كدعوة ثانيًا، أي: تحذير الناس ممّا يحتويه الشعار من ضلالات ومفاسد مبنًى ومعنًى، وإرادة التغيير مع الالتزام بالنقد الهادف ببيان الحقيقة بِنَزاهة وصدق وإخلاص، غير أنّ هذه الصحيفة لم تعمّر طويلاً وتوقّفت بسبب المنع الصادر من قبل الحكومة الفرنسية بإيذاء خصوم الدعوة والحقّ.

قد عمل ابن باديس خلال فترات حياته على تقريب القرآن الكريم بين يدي الأمّة مفسّرًا له تفسيرًا سلفيًّا، سالكًا طريق رُوّاد التفسير بالمأثور، معتمدًا على بيان القرآن للقرآن، وبيان السنّة له، آخذًا في الاعتبار أصول البيان العربي، يقول ابن باديس: (فقد عدنا– والحمد لله تعالى– إلى مجالس التذكير، من دروس التفسير. نقتطف أزهارها، ونجني من ثمارها، بيسر من الله تعالى وتيسير، على عادتنا في تفسير الألفاظ بأرجح معانيها اللغوية، وحمل التراكيب على أبلغ أساليبها البيانية، وربط الآيات بوجوه المناسبات، معتمدين في ذلك على صحيح المنقول، وسديد المعقول، مما جلاه أئمة السلف المتقدمون، أو غاص عليه

علماء الخلف المتأخرون، رحمة الله عليهم أجمعين)[1] ، كما كانت عنايته فائقة بالسنّة المطهرة وبالعقيدة الصحيحة التي تخدم دعوته الإصلاحية، فوضع كتابه «العقائد الإسلامية من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية»، على نهج طريق القرآن في الاستدلال المتلائم مع الفطرة الإنسانية، بعيدًا عن مسلك الفلاسفة ومنهج المتكلّمين، وحارب البدع والتقليد والشرك ومظاهره والتخلّف ودعا إلى النهضة والحضارة في إطار إصلاح الدين والمجتمع سانده علماء أفاضل في دعوته ومهمّته النبيلة، كما ساعدته خبرته بالعلوم العربية –آدابها وقواعدها– لذلك جاء أسلوبه في مختلف كتاباته سهلاً مُمتنعًا، بعيدًا عن التعقيد اللفظي، وكذا شعره الفيّاض، هذا بغضّ النظر عمّا كان عليه من اطلاع على المذاهب الفقهية المختلفة كما هو ملموس في فتاويه المتعدّدة، فضلاً عن مذهب مالك . رحمه الله .، ومن علم بالأصول متمرّسًا بأسلوبه ومتزوّدًا بقواعده مع الإدراك الصحيح والفهم التامّ.

ولعل هذا الموقف هو اول ما فتح عليه عيون سلطات الادارة الفرنسية ، وبذلك يكون ابن باديس من بين القلة من المصلحين في العصر الحديث ممن اتيحت لهم فرصة التطبيق العملي لأفكارهم ومبادئهم .

امتاز فكر عبد الحميد ابن باديس بكونه شكل قدرة ابداعية مميزة بمقاييس القدرة النقدية التنويرية التي تميز بها خلال النصف الاول من القرن العشرين ، ومما لاشك فيه ان ابن باديس استطاع ان يسجل اسمه بين كبار المفكرين الاسلاميين المعاصرين اثارة للجدل والاهتمام والثقافة الحداثية في عصره . ولا بد من الاقرار بصعوبة دراسة شخصية ابن باديس لغناها الفكري المتنوع ونشاطها في مختلف المجالات ، ففكر ابن باديس يمكن ان يكون آليات حديثة في المناهج الدراسية لمختلف مراحل التعليم وصولا للجامعة بعيدا عن لغة العنف الرمزي التي تبثها بعض المحطات الإذاعية والقنوات الفضائية ، وان توظف بعض

[1] عبد الحميد ابن باديس ،مجالس التذكير ، علق عليه وخرج آياته و أحاديثه أحمد شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 41

مفردات فكر أبن باديس في مناهج التعليم كالتاريخ والتربية الوطنية والتربية الاسلامية ومناهج مؤسسات التعليم الديني ومادتي الديمقراطية وحقوق الانسان ، على ان تبرز مفاهيم الوطن والعدالة والتسامح واحترام الرأي الاخر وحق الاختلاف ومهارات الحوار والاتصال.